الولاء في الإسلام

ما هو؟ ولمن يكون

بقلم
دكتور
فوزي عبد العظيم سلامة محمد
مدرس بقسم العقيدة

تمهيد

لقد أكمل الله — عز وجل — دينه ، وأتم رسالاته بالنبي الخاتم سيدنا محمد — ﷺ — وبما أنزل عليه من قرآن وسنة ، فلا نبي بعده . وبالتالى لا رسالة ولا وحى ، فيه — ﷺ — كمل الدين ، ووضح المنهج ، يقول تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا »[1] « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »[2] ، ويقول — سبحانه — مخاطبا النبي — ﷺ — ومن آمن معه ، واتبع دينه : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون »[3] .

والمتتبع لآيات الذكر الحكيم يرى أن الله — عز وجل — قد حصر الجهة التي يجب على المسلمين أن يراعوها ويتجهوا إليها بولائهم وذلك في قوله تعالى : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا »[4] ، وبين النهاية المحتومة التي يتمتع بها من يخلصون ولاءهم لله ولرسوله وللمؤمنين ، وذلك في قوله جل شأنه : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون »[5] .

---

(١) سورة المائدة من الآية رقم ٣

(٢) سورة الأنعام من الآية رقم ١٥٣

(٣) سورة هود الآيتان رقم ١١٢ ، ١١٣

(٤) سورة المائدة من الآية رقم ٥٥

(٥) سورة المائدة الآية رقم ٥٦

والمسلمون الأوائل — رضوان الله عليهم — فهموا هذا التوجيه الإلهي ، فحققوا من خلاله دولة إسلامية ، نشأ أبناؤها على أساس من معانيه ، فأصبحوا حزب الله الغالب ، لكن مع مرور الزمن أدرك أعداء الإسلام ، سر هذا النصر ، وفهموا حقيقته ، فعملوا بكل طاقاتهم الفكرية لتمزيق الكيان الإسلامي ، وتوهين ولائه لله ودينه ، وقد نجحوا في هذا ، فالمسلمون الآن ينتشرون في أكثر من سبعين دولة إلا أن بعضهم قد لا يعرف عن البعض شيئاً ، ومع كل هذا فلا يأس فإن الخلاص معروف ، وهو أن يستجيب المسلمون لنصيحة ربهم الممثلة في قوله سبحانه : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا »[1] فيستعيدوا ثقتهم بربهم ، ويمنحوه ولاءهم المطلق ، ويمكنوا شرعه بينهم ، ومن لا يفعل ذلك فليس من الله في شيء .

التعريف بالولاء

جاء في المعجم الوجيز :

(الموالاة) فقها أن يعاهد شخص شخصاً آخر ، (المولى) : الرب ، وكل من ولي أمراً أو قام به ، والسيد ، والعبد ، والتابع ، والمنعم ، والمنعم عليه ، والقريب من العصبة كالعم ، وابن العم ونحو ذلك ، (المولوى) المنسوب إلى المولى ، والزاهد ، أو العالم الكبير ، (الولاء) : القرابة ، والنصرة ، والمحبة ، (الولاية) : القرابة (الولاية) : القرابة ، والخطة ، والإمارة ، والسلطان ، والبلاد التي يتسلط عليها الوالي ، (الولي) : كل من ولي أمراً أو قام به ، والنصير ، والمحب ، والصديق ، والمطيع ، يقال : المؤمن ولي الله ، والجمع (أولياء) .

(١) سورة المائدة من الآية رقم ٥٥

(ولى العهد) : من تؤول إليه وراثة الملك ، (ولى المرأة) : من يلى عقد النكاح عليها ولا يدعها تستبد بعقد النكاح من دونه ، (ولى اليتيم) : الذى يلى أمره ويقوم بكفايته .

(وفى الاقتصاد السياسى) : من يتحمل مخاطر الإنتاج ، فله الغنم وعليه الغرم ، والجمع : (أولياء) [1] .

تحديد المراد من التعريف :

مما سبق يعلم تشعب معنى الكلمة وتفرعها ... لكن إذا تجاوزنا ذلك إلى أصل اللفظ وأساسه ، نجد أنه لا يخرج عن معنى النصرة ، والرعاية ، والمحبة بين طرفين ، يظهر هذا ويبينه ما جاء فى القرآن الكريم وذلك فى مثل قوله تعالى :

— « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » [2] .

— « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله » [3] .

— « ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء » [4] .

---

(١) المعجم الوجيز — مجمع اللغة العربية — القاهرة مادة (ولى) ص ٦٨٢

(٢) سورة البقرة من الآية رقم ٢٥٧

(٣) سورة النساء من الآية رقم ٨٩

(٤) سورة الأحقاف من الآية رقم ٣٢

— « ولكل جعلنا موالى [١] مما ترك الوالدان والأقربون » [٢] .

— « وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » [٣].

— « والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا » [٤] .

— « وإني خفت الموالى من ورائي وكانت امرأتي عاقرا ... الآية » [٥]
قال ابن كثير : قال مجاهد وقتادة والسدى أراد بالموالى العصبة [٦] .

— « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » [٧] .

فمن هذه الآيات يتضح لنا جليا بعض معانى الولاء من النصرة والمحبة والقرب ، وعلى ضوء هذا المعنى سيكون بحثى هذا عن معنى الولاء .

الولاء لله (جل جلاله)

الولاء لله تعالى يكون بإسلام الوجه له سبحانه ، بحيث تتوجه إليه تعالى مشاعر الإنسان وجوارحه ، وخلجات نفسه ، وكل مايملك ، اقتداء بمن نزل عليه « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين

---

(١) قال ابن كثير عن ابن عباس : أى عصبة ، والعرب تسمى ابن العم مولى جـ ١ ص ٤٩٠

(٢) سورة النساء من الآية رقم ٣٣

(٣) سورة الأنفال الآية رقم ٤٠

(٤) سورة الأنفال من الآية رقم ٧٢

(٥) سورة مريم الآية رقم ٥

(٦) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٢

(٧) سورة الممتحنة من الآية رقم ١

لاشريك له » (١) ومن « قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » (٢) « ومن قال الله فيه : « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى » (٣) .

هذا الولاء لله — عز وجل — لا يكون قولا باللسان فقط ، بل يشاركه العمل ويتمثل فى الانقياد التام لشريعته — سبحانه — وتنفيذ ما جاء فيها ، والذود عنها ، والمقاتلة من أجلها ، إنه تنفيذ لشرع الله — عز وجل — فلو تصادم هذا الولاء مع الأهل والعشيرة ، فيجب أن ينحاز المؤمن لله — عز وجل — ولرسوله ، فلله الاتجاه الأول والولاية الأولى ، وهذا واضح من خطاب الله — تعالى — للمؤمنين فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ، قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » (٤) ، ومعنى هذا هو إيثار حق الله تعالى ، بحيث تكون له سبحانه الوجهة الأساسية ، فإذا تعارض شىء مع هذا الاتجاه انسلخ منه المسلم ، وتسامى عليه ، ووجه وجهه لله رب العالمين .

من ثمرات هذا الولاء :

هذا الشعور إذا سيطر على المسلم وملك جوارحه هان عليه كل شىء ،

---

(١) سورة الأنعام من الآيتين رقم ١٦٢ ، ١٦٣

(٢) سورة البقرة الآية رقم ١٣١

(٣) سورة لقمان من الآية رقم ٢٢

(٤) سورة التوبة الآيتان رقم ٢٣ ، ٢٤

ورخص أمامه الغالى والنفيس ، وأصبحت الدنيا لا تساوى عنده مثقال حبة من خردل ، واكتفى بالله رب العالمين خالقه . وخالق كل شيء .

وليس معنى هذا ترك الدنيا ، وعدم الاستمتاع بما فيها ، فإن هذا يرفضه الإسلام ولا يقره ، يقول الله تعالى : قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »[1] .

مظاهر الولاء لله — عز وجل — :

مظاهر الولاء لله تعالى كثيرة متعددة أهمها ما يلى :

١ — الإيمان بالله تعالى إلها واحداً عليما حكيما خالقا قادراً ، متصفا بكل كمال منزها عن كل نقص « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[2] » ، « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[3] » ، « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ، وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون[4] » والتعرف عليه سبحانه لا يكون إلا من خلال اسمائه وصفاته ، والتفكير فى عظيم مخلوقاته ، يقول تعالى « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء

---

(١) سورة الأعراف من الآية رقم ٣٢
(٢) سورة الشورى من الآية رقم ١١ .
(٣) سورة الأنبياء من الآية رقم ٢٢ .
(٤) سورة الأنعام الآيتان رقم ٥٩ ، ٦٠ .

وكيل ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير[١]» ، « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ، فذكر إنما أنت مذكر[٢] » ، « يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ، ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحي به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون[٣] » ، وفى الحديث عن أبى هريرة عن النبى — ﷺ — قال : « إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة[٤] » ، قال المناوى : أى من علمها وتدبر معانيها واطلع على حقائقها ، أو من أطاقها أى أطاق القيام بحقها ، والعمل بمقتضاها ، بأن تأمل معانيها واستعمل نفسه فيما يناسبها[٥] .

كذلك يشمل الإيمان بالله تعالى ، الإيمان بما هو غيب (الذين يؤمنون بالغيب)[٦] ، من ملائكة الله — تعالى — ، وكتبه ورسله ،

---

(١) سورة الأنعام الآيتان ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٢) سورة الغاشية الآيات رقم ١٧ — ٢١ .
(٣) سورة الروم الآيات رقم ١٩ — ٢٥ .
(٤) صحيح مسلم جـ ٨ ص ٦٣ .
(٥) انظر الهامش على صحيح مسلم جـ ٨ ص ٦٣ ط دار التحرير — القاهرة .
(٦) سورة البقرة من الآية رقم ٣ .

واليوم الآخر — بما فيه — وبالقدر بخيره وشره ، حلوه ومره ، « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير[١] » ، وفى الحديث حينما سئل النبى — ﷺ — عن الإيمان قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر[٢] » وفى رواية أخرى زاد : « وتؤمن بالقدر كله[٣] » .
والذى لاشك فيه أن الذى يخسر هذا الإيمان يخسر وجوده فى هذه الحياة وما بعد هذه الحياة ، وبذلك يكون قد خسر كل شىء .

٢ — إظهار الطاعة لله — عز وجل — والمسارعة بإعلان العبودية :

وظيفة الإنسان فى هذه الحياة وعمله الذى وجد له ، والغاية التى خلق من أجلها هى العبادة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده ، ومن قصر فيها فقد انتكس وأبطل غاية وجوده ، وأصبحت حياته جوفاء لا قصد فيها ولا غاية ، قال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون[٤] » .
والعبادة فى الإسلام لها مدلول أوسع من مجرد إقامة الشعائر المعروفة كالصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، فهى كما يقول الإمام ابن تيمية : « العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة[٥] » ، وعلى ذلك فهى تتمثل فى أمرين رئيسيين :

الأول : استقرار معنى العبودية — لله — عز وجل — فى النفس

(١) سورة البقرة الآية رقم ٢٨٥ .
(٢) رواه أبو هريرة من حديث طويل صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٠ .
(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٣١ رواه أبو هريرة من حديث طويل .
(٤) سورة الذاريات الآية رقم ٥٦ .
(٥) الفتاوى — ابن تيمية — جـ ١ ص ٢٦١ .

وذلك بأن يعلم بأن هناك عبدا يعبد، وربما يُعبد، والكل بالنسبة لله سبحانه عبيد.

الثانى: التوجه إليه سبحانه بكل حركة، ومراعات ذلك بأن يقوم بحفظ العقل، والقلب والجوارح من مخالفة مراد الله - عز وجل - والتوجه بها إليه — سبحانه — والتجرد من كل شىء يخرج الإنسان من إطار العبودية الخالصة لله — عز وجل —.

بهذا وغيره يتحقق معنى العبادة، وتصبح كل حركة من الإنسان فى هذا الكون عبادة كالصلاة وغيرها، وذلك كتعلم المهن والعلوم المدنية التى ترتفع بالأمة الإسلامية حتى تكون خير أمة، فى طلب هذا وتعلمه عبادة لله — تعالى — ومنفعة خاصة الإنسان ذاته، فى الحديث القدسى: «يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئا[1]».

٣ — الاستسلام المطلق لله — عز وجل — والتوجه إليه بالكلية:

من الولاء لله — عز وجل — الاستسلام الكامل له سبحانه، وذلك بأن يتوجه العبد بكل ما يملك من نفس وجوارحه لله — عز وجل — حتى يستقيم مع الكون الذى أتى طائعا لله — عز وجل —، بذلك يضمن

---

(١) من حديث أبى ذر جندب بن جنادة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — فيما يروى عن الله تبارك وتعالى، رواه مسلم، وقال الإمام أحمد بن حنبل — رحمه الله — قال: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا. انظر رياض الصالحين — النووى — ص٨٣.

الراحة والاطمئنان ، فينطلق فى هذه الحياة مرتكنا إلى سلطان الله — عز وجل — الذى لا يقهر ولا يغلب ، متوكلا عليه ، باذلا جهده وطاقته فى خدمة دينه ، ونفسه ، ومجتمعه ، واثقا بأنه لا يخذل أحدا ، قال تعالى: « ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً[1] » ، وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رسول — ﷺ — كان يقول : « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، اللهم أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلنى ، أنت الحى الذى لا تموت ، والجن والإنس يموتون[2] » وعن أم حبيبة زوج النبى — ﷺ — قالت : اللهم امتعنى بزوجى رسول الله — ﷺ — وبأبى أبى سفيان وبأخى معاوية ، فقال النبى — ﷺ — قد سألت الله لآجال مضروبة ، وأيام معدودة ، وأرزاق مقسومة لن يعجل شيئا قبل حله ، أو يؤخر شيئا عن حله ، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب فى النار ، أو عذاب فى القبر كان خيراً وأفضل[3] » . على هذا المعنى صار سلفنا الصالح — رضوان الله عليهم — فى هذه الحياة الدنيا ، واندفعوا يخوضون المعارك فى السلم والحرب على سواء فى عزيمة وإصرار وقدرة واقتدار ، ولسان حالهم ينطق « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير[4] » ، فأيدهم الله بنصره ، وصاروا قادة للأمم ، وأسوة صادقة لمن بعدهم .

٤ — الاعتصام بالصبر فى جميع الأمور والمواطن :

إذا كان الأنبياء أشد الناس بلاء ، وعلى قدر الإيمان يكون الابتلاء كما أخبرنا الصادق المعصوم ﷺ ، فإن الصبر على ذلك يظهر الولاء لله

---

(١) سورة الطلاق من الآية رقم ٣ .

(٢) صحيح مسلم جـ ٨ ص ٨٠ . (٣) المصدر السابق ص ٥٥ .

(٤) سورة الممتحنة من الآية رقم ٤ .

تعالى ، فعن أنس بن رضى الله عنه — قال قال رسول الله — ﷺ — إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط(١) ، ومن هذا يؤخذ بأن الرضا والصبر فى الاسلام له ألوان ، كما أن له مقتضيات ، صبر على طاعة الله وتحمل مشاقها من عمل وجهاد ، ودعوة ، واجتهاد ... إلخ ، وصبر على النعماء والبأساء ، وقل من يصبر على النعمة فلا يبطر ولا يكفر ، وصبر على حماقات الناس وجهالاتهم وهى تضيق الصدور وصبر ، وصبر وصبر كله ابتغاء وجه الله — عز وجل — وولاء له « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم »(٢) لاتحرجا من أن يقول الناس جزعوا ، ولا تجملا ليقول الناس صبروا ، ولا رجاء نفع من وراء الصبر ، ولا دفعا يأتى به الجزع ، ولا لهدف واحد غير ابتغاء وجه الله — سبحانه — وولاءا له ، إنه التمسك بقول الله — تعالى — فى مخاطبته للنبى ﷺ فاصبر كما أولوا العزم من الرسل ولاتستعجل لهم »(٣) ، واصبر على مايقولون »(٤) .

إنه الرجاء فى الله ، والثقة بالله والاعتماد على الله ، ولابد لأمة تناط بها القوامة على البشرية ، والعدل فى الأرض والصلاح ، أن تهيأ لمشاق الطريق ، ووعثائه بالصبر فى البأساء والضراء وحين الشدة ، « والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس »(٥) ... الصبر فى البؤس والفقر ، والصبر

(١) رواه الترمذى ، وقال حديث حسن ، انظر رياض الصالحين صـ ٤٤

(٢) سورة الرعد من الآية رقم ٢٢

(٣) سورة الأحقاف من الآية رقم ٣٥

(٤) سورة المزمل من الآية رقم ١٠

(٥) سورة البقرة من الآية رقم ١٧٧

فى المرض والضعف ، والصبر فى القلة والنقص ، والصبر فى الجهاد والحصار والصبر على كل حال كى تنهض بواجبها ، فعن الخباب بن الأرت — رضى الله عنه — قال : شكونا إلى رسول الله — ﷺ وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة ، فقلنا ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا ، فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار ، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه ، مايصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون ، [1] ، وعن أبى عبد الرحمن عبد الله ابن مسعود — رضى الله عنه — قال : كأنى أنظر إلى رسول الله — ﷺ — يحكى نبيا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه ضربه قومه فأدموه ، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون[2] وعن أبى يحى صهيب بن سنان — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمنين ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له [3] ،

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — مايزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة ، [4] .

---

(١) رواه البخارى ، وأبو داود ، والنسائى انظر رياض الصالحين — النووى ص ٤٣

(٢) متفق عليه — المصدر السابق ص ٤١

(٣) رواه مسلم — المصدر السابق ص ٣٦

(٤) رواه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح

٥ — مراقبة الله تعالى وخشيته :

من ولاء العبد لله — عز وجل — علمه بأنه — سبحانه — مطلع عليه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، وهو معه أينما كان، يقول سبحانه : يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور »[1]، « إن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء »[2] «الذى يراك حين تقوم ، وتقلبك فى الساجدين »[3] « وهو معكم أينما كنتم »[4].

بهذا يصير العبد فى إفاقة تامة لاينظر إلى محامد الناس له ، أو ثناؤهم عليه ، فهذا كله صنيع زائل لاقيمة له إلا فى دنيا الناس ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ذلك أنهم ركضوا فى جوانبها ، وصاروا كالدئاب المسعورة ، مراعين الخالق ناسين الخالق ، مقبلين على الحطام الزائل ، فاقدين الايثار والتطلع إلى ماعند الله — تعالى — .

فقلت لديهم المراقبة ، وغاب عنهم الضمير ، وأساس ذلك معلوم وهو مسايرة الشيطان وركبه ، فألبسهم لباس القوة الزائفه ، وضخم لهم من شأن أوليائه ، فأوقع فى قلوبهم أنهم ذوحول وطول ، وأنهم يملكون النفع والضر ، وذلك ليتحقق من خلالهم الشر والفساد فى

(١) سورة غافر الآية رقم ١٩

(٢) سورة آل عمران الآيه رقم ٥

(٣) سورة الشعراء الآيتان رقم ٢١٨ ، ٢١٩

(٤) سورة الحديد من الآية رقم ٤

الأرض « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين »(١) .

والاسلام لا يرضى هذا لأبنائه بل يعلمهم بالله أولاوآ خراً ، لأن قدر الله هو الذى يصرف كل شىء ، وكل أحد ، وكل حادث ، وكل حالة ، والمؤمن من شأنه أن ينتهى مع قدر الله إلى حيث ينتهى وهو راض مستريح ، وإذا انسكب هذا المعنى فى قلب المسلم ملأقلبه يقيناً وإيمانا لايخشى الناس . ولا يلتفت إلى باطلهم « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله الآية »(٢) .

وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم »(٣) .

هذه هى أهم مظاهر الولاء لله — عز وجل — ، وبها يتعلق القلب بالله — عز وجل — وحده ، والإنابة إليه فى كل وقت وحين ، والإخلاص له فى السر والعلن ، والصدق فى القول والفعل ، والتوبة والاستغفار عما زل به القدم ، والرضا بقضائه وقدره ، وتعلق الجوارح بأوامره ، والبعد بها عن نواهيه ...... إلخ .

---

(١) سورة آل عمران الآية رقم ١٧٥
(٢) سورة آل عمران الآيتان رقم ١٧٣ ، ١٧٤
(٣) سورة يونس الآية رقم ١٠٧

الولاء للرسول ﷺ :

والولاء لرسول الله — ﷺ — لايكون إلا بالاذعان التام لكل ما يعلنه عن ربه — جل وعلا — وبتحكيمه عليه الصلاة والسلام فى أمره كله ، ثم يمضى راضيا بحكمه مسلما لتوجيهه ، لديه الاقتناع التام ، وبذلك يتم إيمان العبد . قال تعالى « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم [١] .

فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما [٢] .

وفى هذا توجيه عام للأمة الإسلامية ، بأن يقضوا بما قضى به رسول الله — ﷺ — (فالعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب) ، ومعنى تحكيم رسول الله — ﷺ — هو تحكيم شريعته ، ومنهجه ، لاتحكيم شخصه كما زعم المرتدون الذين قاتلهم الصديق — رضى الله عنه — ، يبين هذا المفهوم ويجليه هذا الموقف الرائع الدال على فهم صحابة رسول الله — ﷺ لمعنى الولاء والطاعة للرسول — ﷺ — .

ذلك أنه لما نقض مشركو مكة العهد الذى بينهم وبين المسلمين ، بإغارتهم على قبيلة خزاعة حليفة رسول الله — ﷺ وقدم عمرو ابن سالم يستنجد برسول الله — ﷺ — عزم الرسول على فتح مكة وغزو المشركين ، وأدركت قريش أنها أخطأت ، وارتكبت حمقا ، فسارعت إلى إرسال أبى سفيان لعله يفلح فى تهدئة الخواطر ، وإيقاف الحـــرب .

---

(١) سورة الأحزاب من الآية رقم ٣٦

(٢) سورة النساء الآية رقم ٦٥

وقدم أبو سفيان إلى المدينة وقصد ابنته أم حبيبة زوج رسول الله — ﷺ — .

فلما دخل عليها كان فراش رسول الله — ﷺ — مبسوطاً ، فلما تقدم ليجلس عليه طوته عنه . . . فقال لها يابنية : أرغبت بي عن هذا القماش ، أم رغبت به عني ؟ فقالت له ابنته : بل هو فراش رسول الله — ﷺ — ، وأنت رجل مشرك نجس ، ولا أحب أن تجلس على فراش رسول الله — ﷺ — ، قال : والله لقد أصابك يا ابنتي بعدي شر . ثم خرج حتى أتى رسول الله — ﷺ — ، فكلمه فلم يرد عليه شيئاً ، فكلم أبا بكر ، وعمر ، فلم يستجب له أحد »[1] .

هذا هو أبو سفيان قائد مكة ، وشيخها في الجاهلية ...... تنأى عنه ابنته وتبعد عنه فراش رسول الله — ﷺ — لأن ولاءها ليس إلا لله ولرسوله ، مع ما هو معروف من أن عواطف المرأة سريعة التأثر ، وأنها عادة ما تضعف أمام علائق الأبوة والبنوة ، ولكن الإيمان صنع من صحابة رسول الله — ﷺ — وأزواجه وأتباعه نفوساً جديدة ، استعلت على العواطف الإنسانية ، والنزعات البشرية ، حتى أصبحت تؤثر التبعية لله ولرسوله — ﷺ — على ما تملك من مال وأولاد حتى نفس الإنسان التي بين جنبيه .

من مظاهر الولاء للرسول ﷺ :

من دلائل الولاء للرسول — ﷺ — زيادة على ما تقدم ما يلي :

---

(١) انظر سيرة النبي — ﷺ — ابن هشام — جـ ٢ ص ٢٦٦

١ — حب النبي — ﷺ — :

حب رسول الله — ﷺ — متصل بحب الله — جلا جلاله — لاينفصل عنه ، يقول تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم »[١] ، ولم لا؟ وقد اصطفاه الله واختاره وجعله خاتماً للنبيين ؛ فأخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الكفر إلى الإيمان ومن سوء الجهل وظلامه إلى نور العلم وضيائه ، وهذا واضح من خلال حرصه — ﷺ على أمته ، وتمسكه بإخراجهم من الكفر إلى الإيمان ، فقد كانت تصل به هذه الحالة أقصاها ، إلى درجة يقول له فيها الوحى : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين »[٢] ، « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا »[٣] ، يعنى أتهلك نفسك يامحمد أسفا على انصراف قومك عن الإيمــان ، وقد استمر — ﷺ — فى جهاده وحرصه هذا ، يحى القلوب ، ويوقظ الضمائر ، ويدل على طريق الله — عز وجل — الموصل إلى رضوانه ، حتى آخر نفس فى حياته — ﷺ — ومات ودرعه مرهونة عند يهودى .

أفلا يستحق هذا النبي الكريم ، الحب والولاء من أمته ، إن هذا أقل شىء ، ولا يكون الإنسان مؤمنا إلا إذا قــدم حب رسول الله — ﷺ — على نفسه ووالده وولده والناس أجمعين فعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله — ﷺ — « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »[٤] ، وعنه أيضاً عن النبي — ﷺ —

(١) سورة القرآن من الآية رقم ٣١
(٢) سورة الشعراء الآية رقم ٣
(٣) سورة الكهف الآية رقم ٦
(٤) صحيح مسلم جـ ١ ص ٤٩

قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله . وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار»[1] ، لقد بلغ هذا المعنى مداه فى صحابة رسول الله — ﷺ — .

فقد أحبوه حباً لم تعرف له النفس البشرية نظيراً ، فها هو أنس ابن النضر عم أنس بن مالك لما سمع يوم أحد قتل رسول الله — ﷺ — قال : ما تصنعون بالحياة بعده ، موتوا على ما مات عليه رسول الله — ﷺ — ثم استقبل القوم وقال لسعد بن معاذ هذه الجنة ورب الكعبة أجد ريحها دون أحد ، وقاتل حتى قتل ، ووجده فيه بضعاً وثمانين جراحة ما بين ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، هكذا بلغ حب الصحابة للنبى — ﷺ — .

ومعنى هذا كما يقول القاضى عياض — رضى الله عنه — أعلم أن من أحب شيئاً آثره وآثر موافقته ، وإلا لم يكن صادقاً فى حبه وكان مدعياً »[2] ، فعن ثوبان مولى رسول الله — ﷺ — أنه كان شديد الحب لرسول الله — ﷺ — قليل الصبر عنه ، فأتاه يوماً وقد تغير لونه ونحل جسمه ، وعرف الحزن فى وجهه ، فسأله رسول الله — ﷺ — عن حاله ، فقال : يا رسول الله مابى وجع غير أنى إذا لم أرك اشتقتك : واستوحشت وحشة عظيمة حتى ألقاك ، فذكرت الآخرة بحيث لا أراك هناك ، لأنى إن دخلت الجنة فأنت تكون فى درجات النبيين ، وإن أنا لم أدخل الجنة فحينئذ لا أراك أبداً ، فنزلت هذه الآية : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله

---

(١) المصدر السابق ص ٤٨

(٢) مختصر شعب الإيمان — البيهقى ص ٢٩

عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين »[1]، قال الشيخ النبهاني — رحمه الله —: وهذا عام فى المطيعين لله من أصحاب الرسول ومن بعدهم »[2].

والحب الصادق له دلائل وإمارات تظهر على المحب، وذلك من اقتداء به — ﷺ —. واستعمال سنته، واتباع أقواله وأفعاله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه، والتخلق بأخلاقه الشريفة وإلا لم يكن محباً، فلا محبة بدون طاعة والتزام.

٢ — تعظيم النبي — ﷺ — وتوقيره:

من مظاهر الولاء لرسول الله — ﷺ تعظيمه وتوقيره يقول تعالى: « فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون »[3]، « لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه »[4]، والتعزير هنا: التوقير بلا خلاف[5]، ويقول سبحانه: « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً »[6] أى لا تقولوا يا محمد يا أبا القاسم، بل قولوا يا رسول الله، يا نبى الله، ويقول أيضاً: « يا أيها الذين آمنوا

(١) الأنوار المحمدية من المواهب اللدينة — النبهاني — ص ٣٩٢، والآية من سورة النساء رقم ٦٩.
(٢) المصدر السابق — نفس الصفحة.
(٣) سورة الأعراف من الآية رقم ١٥٧
(٤) سورة الفتح من الآية ٩
(٥) المعجم الوجيز — مجمع اللغة العربية القاهرة — ص ٤١٦
(٦) سورة النور من الآية رقم ٦٣